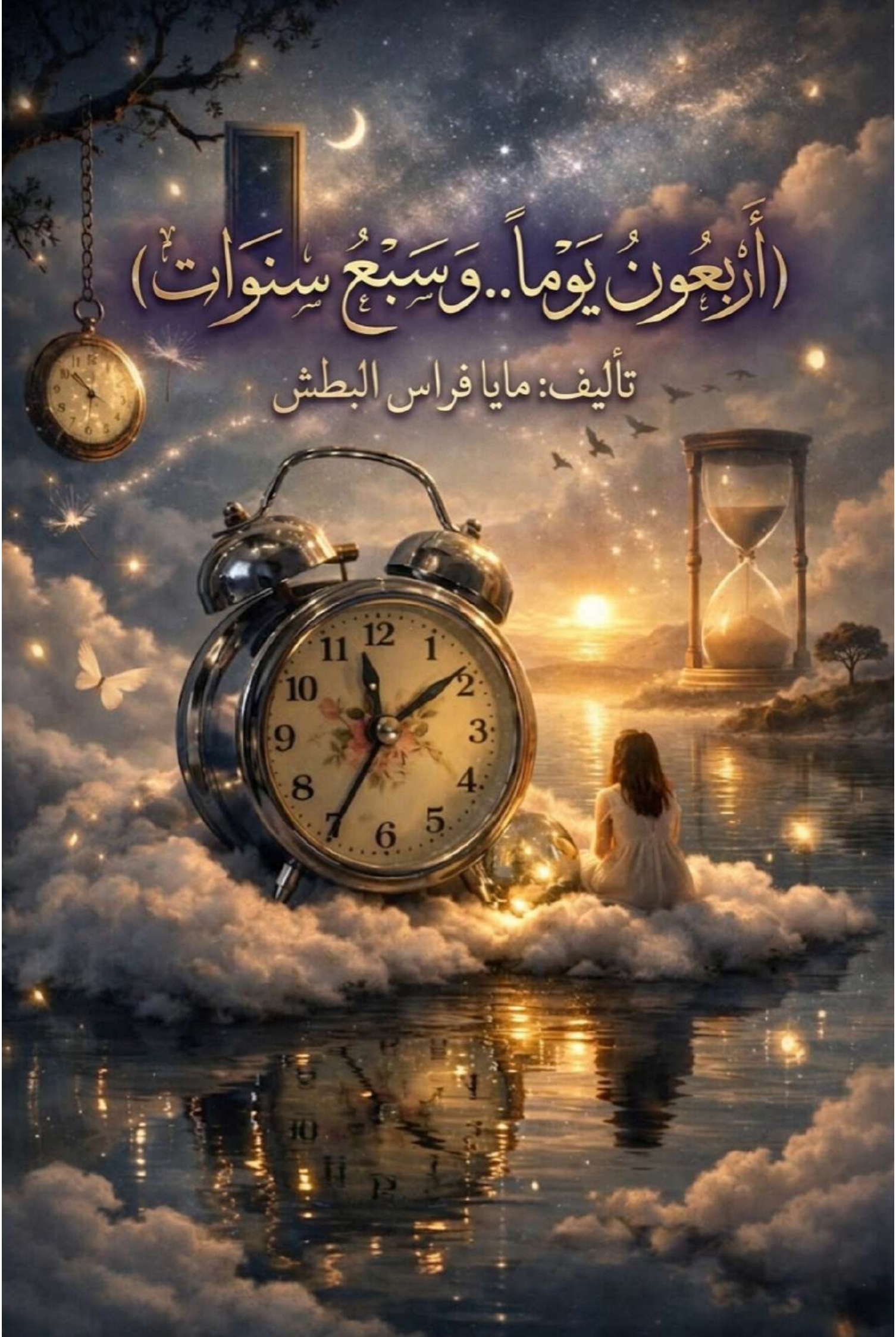

(أَرْبعُونَ يوماً..وَسَبعُ سنوات)

تأليف: مايا فراس البطش

اسم الكتاب: أربعون يوماً وسبعُ سنوات

تأليف:مايا فراس البطش
تصميم الكتاب: فاطمة فتّوح
طلب التصميم: 0992481213
سنة النشر: 2026

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلِّفة، ولا يُسمح بأيّ نسخٍ أو اقتباسٍ من الكتاب دون إذنٍ مسبقٍ منها.

إهداء

إلى النبعين اللذين فاضا بالدّفء حين جفّت أنهار العالم من حولي..
إلى "جدّي".. الحصن المنيع، والعمود الذي اتكأتْ عليه طفولتي المهزومة، من منحني الهيبة والأمان وجعلني أشعر بأنني مصونة في حماه ما دام حياً يُرزق.
وإلى "جدّتي" .. الجبر الإلهي الذي رتّق انكسار روحي، مَن سهرتْ الليالي لتعيد العافية لجسد أختي الرضيعة، ومسحتْ دموعي بيديها الحانيتين، وصنعتْ لنا وطناً حقيقياً تحت سقفها حين تخلّتْ عنا الأقدار؛ إليكما أهدي هذا الحصاد، فغرسكما الطيب قد أثمر ونجح.
إلى رفقاء الشقاء الثابتين في فوضى هذا العالم..
إلى "أخي".. الصبيّ الذي زرّر لي قميص المدرسة بيدين مرتعشتين خوفاً، واليوم يشتدّ ساعده ليكون السند والظهر الذي أحتمي به في معترك الحياة.
وإلى "أختي الصغيرة".. طفلة الأربعين يوماً التي حُرمت من غذائها الأول لتكبر غريبة، واليوم تزهر ذكاءً وتفوقاً ترفع به رأسنا عالياً؛ أيدينا المشتبكة كانت ولا تزال طوق نجاتنا الوحيد.
وإلى تلك الطفلة الصغيرة في الصف الأول الابتدائي.. التي بكتْ خلف ابتسامة باهتة، وحملتْ غصة الكبار في صدرها الصغير؛ إليكِ يا طفلتي أهدي كل سطر في هذا الكتاب، لأقول لكِ اليوم وأنا امرأةٌ وكاتبة: "نامي بسلام، فقد انتصرنا".

المقدمة

"يبدأ كل شيء من نقطة انكسار، لكن الرواية الحقيقية تبدأ عندما نقرر ألا نموت بين الشظايا.
في هذه الصفحات، لستُ بصدد كتابة سيرة ذاتية للوجع، بل أقتفي أثر الطفولة التي تلاشت فجأة خلف ضباب التخلي. أعود بالزمن إلى تلك الطفلة ابنة السبع سنوات، التي وقفت يوماً أمام شرفة ترقب المطر، ولم تكن تدري أن عاصفة الغياب ستقتلع سقف أمانها، وتتركها في مواجهة دنيا لا ترحم الصغار، ومعها رضيعة لم تتجاوز الأربعين يوماً من عمرها الغض ولا أخاها الكبير .
هذا الكتاب ليس عتباً على أمٍّ غابت وراء الشاشات الباردة لأربعة عشر عاماً، ولا على أبٍ مضى ليبني صرحاً لعائلته الجديدة؛ بل هو اعتراف علني بالامتنان لبيت الجد الدافئ الذي لمّ الشتات، وشهادة ميلاد ثانية لثلاثة أشقاء قرروا أن يصنعوا من رماد الفقد حبراً يضيء العتمة. أفتح معكم هذه الجراح لا لتنزف من جديد، بل لنرى معاً كيف يمكن للقلم أن يتحول من مشرطٍ يؤلم، إلى ضمادةٍ تشفي الروح."

بداية

"تمضي بنا الحياةُ في خُطى متسارعة، والزمنُ لا ينتظر أحداً؛ يسير بنا مسرعاً ليضعنا في مواجهة المعارك العاتية، حاملةً الأيام في طياتها عواصف الظروف، ومرارة الفراق، وانكسارات الأمل الكثيرة. سنواجه في طريقنا ظروفاً قاسية وخيباتٍ متتالية، لنتجرع دروساً لم نكن نريدها يوماً، ونصل إلى مرحلةٍ نفقد فيها ثقتنا بالجميع ونعتزل الناس بعد أن تتلاشى وعودهم. كبرنا فجأة، وتغيرت ملامح أرواحنا قبل وجوهنا، وصرنا ننظر إلى المرايا فلا نعرف أنفسنا. نعم، لقد سقطتُ مراراً وتكراراً، وقبل أن أقف اليوم كلفني هذا النضج الكثير؛ كلفني قلباً كاملاً كنت أثق به، وجردتني تلك الخيبات من طيبتي لأتحول إلى شخص حذر. لكنني في كل مرة كنتُ أتعلم كيف أنهض، ومن بين ركام تلك الانكسارات، ولدتُ من جديد بشخصية لا تشبهني؛ شخصية جعلت من العزلة ملاذها الوحيد بعد أن تلوثت وعود العابرين، فلم أعد أبحث عن كتف أستند عليه، فجدران نفسي اليوم كافية. والآن، وأنا أجلس بمفردي أسترجع شريط الذكريات، قررت أن أكسر حاجز الصمت، وأن أروي لكم كيف تكسرت تلك الخطوات، وكيف بدأت الحكاية من نقطة الصفر."

الفصل الأول
قبل هبوب العاصفة

في يومِ ثلاثاءٍ هادئ، من الحادي والعشرين من تموز لعام ألفين وثلاثة، أبصرتُ النور لأجدَ نفسي محاطةً بحضنِ أمي الدافئ، حيث الأمان المطلق الذي لا يشبهه شيء في هذا الوجود. هناك، والبهجة تملأ أرجاء المكان، اجتمع أهلي واختاروا لي معاً اسماً يحمل رقّة طفولتي، فكنتُ "مايا". حملتُ هذا الاسم، ومعه كنية عائلتي التي احتضنتني بكل حبٍ وحنان، وكبرتُ في كنفهم وأنا أشعر بأن العالم كله يفيض سلاماً، وأنني ولدتُ لأحيا في أمانٍ مطلق لا يزول.

ولم أكن وحدي من يملأ ذلك البيت بالصخب والضحكات، بل كنتُ الطفلة الثانية لعائلتي، وجئتُ إلى هذا العالم وكان لي أخٌ أكبر مني بسنة واحدة؛ قطعةٌ من روحي وسندي الأول في هذه الحياة.

كنا نكبر معاً خطوةً بخطوة، نتقاسم الألعاب، والشقاورة، والأسرار الصغيرة.

كان فارق السن البسيط بيننا يجعلنا أشبه بتوأمين لا يفترقان، نركض خلف أحلامنا الطفولية في ممرات المنزل، ونختبئ معاً خلف الأبواب، ونلوذ بحضن أمي إذا ما واجهنا أي خوفٍ صغير.

كان وجوده بجانبي يمنح طفولتي طعماً خاصاً من الأمان، وكنتُ أرى فيه البطل الحقيقي الذي سيحميني من أي سوء.

كانت طفولتي أشبه بحديقةٍ غنّاء لا تذورها العواصف، ولا تعرف ملامح الخوف أو القلق. كبرتُ وأنا أظن أن كل القلوب تشبه قلب أمي، وأن كل الأيادي الممتدة نحوي تحمل صدقاً لا تشوبه شائبة.

كانت الأيام تمضي رتيبةً لكنها دافئة، تملؤها ضحكاتي العفوية، وحكايات ما قبل النوم، والوعود البريئة بأن الغد سيكون دائماً أجمل. لم أكن أعلم حينها شيئاً عن غدر الأيام، ولا عن خيبات الأمل التي تختبئ لي خلف ستائر المستقبل. كنتُ طفلةً تحلق بأجنحة من نية بيضاء، تثق بالجميع بلا حدود، وتظن أن هذا الحضن العائلي الدافئ سيكون حصني المنيع ضد كل شرور العالم؛ لقد كانت أياماً نقية، عشتُ كل لحظة فيها بقلبٍ مطمئن.

في تلك المرحلة، لم يكن يشغل بالي سوى ألعابي الصغيرة، وتفاصيل طفولتي الشقية المحبوبة. كنتُ أركض مع أخي خلف الفراشات في زوايا بيتنا، وأرى في عيون والديّ هما السند الحقيقي الذي لن يميل أبداً مهما مالت الحياة.

أذكر تماماً غرفتي الصغيرة، السرير الخشبي الأبيض، وتلك الدمية القطنية التي أسميتها "لولو". كانت "لولو" كاتمة أسراري الطفولية، أحدثها قبل النوم عن أحلامي الكبيرة، وعن رغبتي في أن أكبر بسرعة لأكتشف العالم خلف أسوار بيتنا. كم كنتُ ساذجة حين تعجلتُ الأيام لتكبرني!

كانت شقاوة الطفولة تقودني دائماً إلى مغامرات صغيرة داخل المنزل. أذكر في أحد أيام الصيف الدافئة، حين قررتُ أن أستكشف خزانة أمي السرية. تسللتُ على أطراف أصابعي والهدوء يلف أرجاء البيت، وفتحتُ الباب الخشبي الكبير الذي تفوح منه رائحة العطر والياسمين المجفف.

وقفتُ مبهورة أمام فساتينها الملونة وأحذيتها ذات الكعب العالي.

دون تفكير، ارتديتُ فستاناً طويلاً يجر خلفي على الأرض، وانتعشتُ حذاءً أحمر أكبر من قدمي الصغيرتين بمراحل، ولطختُ وجهي بألوان أحمر الشفاه الخاصة بها.

وبينما كنتُ أتمايل أمام المرآة مقلدةً السيدات الكبار، فتحت أمي الباب فجأة!

تجمدتُ في مكاني والخوف الطفولي يملأ صدري، وظننتُ أن العقاب قادم لا محالة.

لكن، بدل الصراخ، انفجرت أمي ضاحكة، واحتضنتني وهي تمسح بقطعة قماش دافئة تلك الألوان عن وجهي قائلة: "لا تستعجلي الكبر يا مايا، فالطفولة أجمل أيام العمر". لم أكن أفهم حينها مغزى كلماتها، ولم أدرك أن المساحيق لاحقاً لن تُستخدم للعب، بل لإخفاء آثار البكاء وشحوب الخيبات.

وفي المساء، حين كان يعود والدي من عمله محاملاً بالهدايا البسيطة وقطع الحلوى التي أحبها، كان البيت يتحول إلى ساحة من الفرح. كنتُ أركض نحو الباب فور سماع صوت مفاتيحه، ألقي بنفسي في حجر ه المنيع، فأشعر أنني أمتلك العالم بأسره. كان والدي يرفعني إلى الأعلى وهو يضحك ويقول: "أنتِ أميرة هذا البيت يا مايا، ولن يسمح والدكِ لأي حزن أن يمس قلبكِ الصغير". كانت تلك الكلمات بمثابة درع واقٍ أتحصن به، وظننتُ أن قوة أبي قادرة على إيقاف قطار الأقدار.

ولم تكن الأيام العادية وحدها مليئة بالفرح، بل كانت الأعياد والمناسبات في بيتنا حكاية أخرى من حكايات الجنة التي عشتها. أذكر تماماً ليلة العيد، كيف كنتُ أرفض النوم وأضع فستاني الجديد وحذائي اللامع بجانب وسادتي، أتحسسهما بين الحين والآخر وكأنني أخشى أن يختفيا مع خيوط الفجر. كنتُ أستيقظ قبل الجميع، أركض في أرجاء المنزل وأنا أنشر بهجتي الطفولية، وأنتظر بشغف تلك "العيدية" البسيطة من يد والدي، والتي كانت تعني لي في ذلك الوقت امتلاك ثروات الأرض بأكملها.

كانت رائحة كعك العيد
التي تصنعها أمي تمتزج بضحكاتنا،
لتصنع ذاكرة دافئة غير قابلة للنسيان، ذاكرة
كنتُ أظنها ستدوم إلى الأبد.
ومع كل تلك البهجة التي كانت تملأ بيتنا
الصغير، كانت عطلة نهاية الأسبوع تحمل طعماً
آخر من الدفء، حيث كنا نتوجه جميعاً إلى بيت
جدي. كان ذلك البيت الكبير القديم، بأبوابه
الخشبية العتيقة ورائحة القهوة بالهيل التي
تفوح من دلاله، بمثابة العش الكبير الذي
يجمع العائلة بأكملها. كان فارق السن الصغير
بيني وبين أخي يجعل من مغامراتنا في بيت
جدي متعة لا تنتهي. أذكر كيف كنتُ أركض
نحو حضن جدتي الحنون، تلك المرأة الصالحة
التي كانت ملامح وجهها تروي حكايات الطيبة
والسلام. كانت تستقبلني بابتسامة تمحو أي
قلق طفولي، وتخبئ لي ولأخي في جيب
ثوبها المطرز قطعاً من الحلوى المجففة
وكأنها تخصنا بوصف سري من الدلال
والاهتمام.

كنا نجتمع نحن الأطفال
في باحة الدار الواسعة،
نلعبُ بلا تعب، ونملأ المكان صخباً وشقاوة تحت أنظار جدي الشغوفة والراضية. في تلك الأمسيات الدافئة، تحت ضوء القمر وجلسات العائلة المليئة بالقصص والضحكات، كنتُ أشعر بقمة الانتماء وقوة السند. لم أكن أتخيل أبداً أن تلك الجدران القوية التي تحمي ضحكاتنا قد يأتي يوم وتهجرها الأصوات، أو أن تلك اللمّة العائلية التي تفيض حباً قد تذروها رياح الظروف وتفرقها خيبات الأيام.

مضت سنوات طفولتي الأولى كحلم ليلٍ جميل، حتى جاء ذلك الخريف الذي كبرتُ فيه كفاية لأدخل المدرسة رفقة أخي الحبيب. أذكر تماماً صباح اليوم الأول؛ حقيبتي الوردية الجديدة، ومريولي المدرسي المكوي بعناية. كانت يدي الصغيرة متمسكة بيد أمي بقوة، وخلف براءتي كان يختبئ فضول عارم لاكتشاف هذا العالم الجديد.

في باحة المدرسة،
وسط صراخ الأطفال وبكائهم خوفاً من فراق أمهاتهم،
كنتُ أقف بثقة، أبتسم للجميع بنية بيضاء، ظناً مني أن المدرسة ما هي إلا امتداد لبيتنا الدافئ، وأن كل من سأقابلهم هناك سيكونون طيبين مثل أهلي.
هناك، على مقاعد الدراسة الخشبية، تعرفتُ على صديقتي الأولى "سارة". كانت سارة طفلة خجولة بعينين واسعتين، تقاسمنا معاً شطائر الصباح، وقطع الشوكولاتة، وأسرارنا الصغيرة. كنا نركض في الباحة تحت أشعة الشمس، ونرسم على دفاتر التلوين بيوتاً وردية نعيش فيها معاً عندما نكبر.
كانت وعودنا الطفولية صادقة، وكنتُ أظن أن الصداقة رابط مقدس لا ينفصم، وأن القلوب التي نلتقيها في البدايات ستبقى معنا حتى النهاية.
كنتُ أرى العالمَ من ثقب الورود، وأظن أن كل من يبتسم في وجهي صديق، وأن الوعود التي تُقال لي هي عهودٌ مقدسة لا تُكسر. لم أكن أعرف أن خلف تلك الوجوه الباسمة قد تختبئ أقنعة، أو أن الحياة يمكن أن تقلب ظهر المجنّ لمن أعطاها كامل ثقته.

عشتُ سنواتي الأولى
وأنا أجمع الذكريات السعيدة
كمن يجمع لآلئ ثمينة، أخبئها
في صندوق صدري الصغير،
وأتحصن بدفء عائلتي التي
كانت تظللني برموش عينها.
كانت تلك الأيام هي زادي
الحقيقي، والجنة الأرضية التي
تمنيتُ لو أن الزمن تجمّد عندها؛
عشتها بكل تفاصيلها الوردية،
غافلةً تماماً عما تخبئه لي
الأقدار تحت رماد السنين، وقبل
أن تتبدل كل تلك الملامح، وقبل
أن تبدأ رياح العاصفة بالهبوب.

الفصل الثاني:
أولى قطرات المطر

"مع دقات جرس الشتاء،
وحين خطوتُ أولى خطواتي في الصف
الأول، بدأت ملامح سمائي الوردية
تتغير؛ أخذت تُمطر ببطء، قطرةً تلو
الأخرى، لتغسل معها ألوان الطمأنينة
التي عشتُ فيها. لم أكن أدرك أن تلك
القطرات لم تكن غيثاً، بل كانت بداية
انكسار كبير؛ فجأة، وبلا سابق إنذار،
بدأت حياتي الحلوة والدافئة تتحول
إلى لوحة باهتة بلا ألوان، وبلا فرح
يذكر. تداخلت الأحداث والظروف
القاسية من حولي، ظروفٌ كانت أكبر
من سني الغض، وأقوى من قدرتي
على الاستيعاب، حتى باتت تدفعني
دفعاً لأتذكر كل لحظة ألم، وأقف
متأملةً كيف تبدد ذلك الأمان في
لحظة واحدة."

"كانت الصدمة أكبر من أن يتحملها عقلي الصغير؛ فكيف لبيتٍ كان يضج بالضحكات أن يغلفه الصمت فجأة؟ وكيف للأيدي التي كانت تمتد لتدللني أن تصبح مشغولةً بعبء الهموم والظروف؟ في المدرسة، بين مقاعد الدراسة التي كنتُ أراها بالأمس مكاناً للمرح، صرتُ ألتفتُ حولي وأنا أشعر بغربةٍ نهشت أماني الطفولي. تلاشت النية البيضاء التي كنتُ أنظر بها إلى العالم، وبدأتُ ألمح في عيون العابرين برودا لم أعتد عليه في حضن أمي أو تحت حماية أبي.

لقد سرقت تلك الظروف مني متعة الأشياء البسيطة، حتى ألعابي التي كانت تشاركني غرفتي لم تعد تبهجني، ودفاتر التلوين أصبحت باهتة لا تغري ريشتي. كنتُ طفلةً في الصف الأول، لكنني حملتُ في صدري في تلك الفترة غصة كبار، وشعوراً مبهماً بأن القادم لن يكون برقة الماضي. كانت تلك الأيام هي اختباري الأول مع الوجع، حيث تعلمتُ باكراً جداً كيف أخفي دمعتي خلف ابتسامة باهتة، وكيف أراقب سمائي وهي تمطر حزناً، منتظرةً بلا جدوى أن تعود ألوان قزح لترسم الفرح في تفاصيل حياتي من جديد."

"... كانت تلك الأيام

هي اختباري الأول مع الوجع، حيث تعلمتُ باكراً جداً كيف أخفي دمعتي خلف ابتسامة باهتة، وكيف أراقب سمائي وهي تمطر حزناً، منتظرةً بلا جدوى أن تعود ألوان قزح لترسم الفرح في تفاصيل حياتي من جديد. ولم يكن هذا الصمت المطبق في بيتنا وليد الفراغ، بل كان غطاءً لشرخٍ كبير أخذ يتسع يوماً بعد يوم. أتذكر تلك الليلة تماماً؛ ليلة انطفأت فيها آخر شمعة للأمان في قلبي الصغير. كنتُ مستلقية في فراشي، أضمّ دميتي المفضلة إلى صدري مستجدية الدفء، حين تغلغل إلى غرفتي صوت مشاحنة حادة بين أمي وأبي. لم تكن مجرد كلمات عابرة، بل كانت أصواتاً محملة بمرارة الخيبات وعجز الظروف التي ضيقت عليهما الخناق.

لأول مرة،
سمعتُ نبرة الخوف في صوت أمي التي كانت دائماً مصدراً لقوتي، ورأيتُ من شق الباب حيرة أبي وهو يمسح وجهه المتعب بكفيه، عاجزاً عن ترميم ما انكسر. في تلك اللحظة، أدركتُ بوعيي الطفولي البسيط أن جدار الحماية الذي كان يرفع سقف أحلامي قد بدأ يتصدع. لم يعد المنزل ملاذاً آمناً من عواصف الخارج، بل صار هو نفسه ساحة للمعركة الصامتة ضد العوز والقلق. زحفتُ عائدة إلى سريري، ودثرتُ رأسي بالغطاء لأحجب أصوات الواقع المر، لكنني لم أستطع حجب ذلك السؤال المرعب الذي ولد في أعماقي وصار يلاحقني كل صباح: هل سنبقى معاً، أم أن المطر سيجرف كل ما تبقّى من بيتنا؟"

"... ولم يكن هذا الصمت
المطبق في بيتنا
وليد الفراغ، بل كان تمهيداً لعاصفةٍ اقتلعت جذور أماننا وألقت بنا في عراء الفقد. كان الوجع الأكبر، والشرخ الذي لم يلتئم في روحي قط، هو ذلك اليوم الذي دُفعنا فيه دفعاً لنخسر أثمن ما نملك؛ حنان أمي ودفء حضنها الذي كان يقينا برد العالم.
تحت وطأة ظروفٍ قاهرة وضغوطٍ مريرة من أهل أمي، رُسمت أقدارنا بغير ما اشتهت قلوبنا الصغيرة. كانوا يضغطون عليها بكل قوتهم لتتخلى عنا، لتتركنا لقمةً سائغة للمصير، وتُسلمني أنا وأخي وأختي إلى أبي، كرمال أن نعيش في بيت جدي (أهل أبي). لم يكن القرار خياراً، بل كان انتزاعاً للروح من الجسد.

كان أخي الكبير
يقف بعمياء سنواته الثماني
وهو يحاول أن يفهم كيف لبيت كامل
أن يتفكك، وكنتُ أنا ابنة السبع
سنوات أراقب المشهد بعينين
تملؤهما الحيرة والدموع، لكن الغصة
الأكبر التي هزت أركان طفولتي كانت
أختي الصغيرة. كانت رضيعة لم تتجاوز
الأربعين يوماً من عمرها؛ كائنٌ غضّ لا
يعرف من الدنيا سوى رائحة حليب
أمها ودفء صدرها. كيف لقلب أن
يحرم طفلة الأربعين يوماً من ملاذها
الوحيد؟ كيف لأيدي الكبار أن تقوى
على فصل جسدها الصغير عن حضن
أمها لتبدأ رحلتها في الحياة غريبة،
محرومة من أولى قطرات الحنان؟

في ذلك اليوم،
حملنا حقائبنا الصغيرة،
وحملتُ في قلبي خوفاً
يفوق عمري بقرون. غادرنا
بيت أمي متوجهين إلى بيت
جدي، تاركين خلفنا أماً
مكسورة الجناح، وأختًا
رضيعة كُتب عليها الكبر
قبل الأوان، لتبدأ فصول
حياتنا الجديدة تحت سقفٍ
آخر، باردٍ مهما بلغت حرارة
شمسه."

"... وفي ذلك اليوم المشؤوم، تحول ركن غرفتنا الصغير إلى محطة قطار باردة، ننتظر فيها رحيلاً لم نختره. جلستُ أنا وأخي وبيننا تلك الكتلة الصغيرة الغضة؛ أختي الرضيعة التي لا يتجاوز عمرها أربعين يوماً. كنا نلتف حولها كجدار حماية بائس، نحاول أن نمنحها دفء أمنا الذي سُلب منها عنوة.

تسمرت عيوننا على الباب، نرقب عقارب الساعة وننتظر عودة بابا من شغله. كان كل صوت خطوة في الممر الخارجي يجعل قلوبنا ترتجف؛ فبقدر شوقنا لرؤيته، كنا نخشى اللحظة التي يدخل فيها ليحملنا ويأخذنا إلى بيت جدي. كنا نعلم أن خطوة واحدة خارج عتبة هذا المنزل تعني أننا سنترك وراءنا كل ما هو مألوف، كل رائحة تذكرنا بأمي، لنذهب ونعيش معهم حياة ثانية تماماً.

كان أخي
ذو السنوات الثماني صامتاً بصمت
الكبار،
يحمل بين يديه حقيبة صغيرة
جمعت شتات طفولتنا، وكنتُ أنا
ابنة السبع سنوات أتحسس وجه
أختي الرضيعة النائمة، وأتساءل
بمرارة: كيف سنشرح لها عندما
تكبر أننا كنا ننتظر في ذلك اليوم
لنبدأ حياة جديدة تحت سقفٍ آخر؟
عاد بابا، وحملت النظرات بيننا ثقل
المصير البائس. التقطنا حقائبنا،
وحمل بابا الرضيعة، ومشينا خلفه
بخطى ثقيلة نحو المجهول، تاركين
خلفنا الطفولة، ومستعدين لجرعة
جديدة من الوجع في بيت جدي."

"... عاد بابا،

وحملت النظرات بيننا ثقل المصير البائس. التقطنا حقائبنا، ومشينا خلفه بخطى ثقيلة نحو المجهول. وفي تلك اللحظة بالذات، ورغم صغر سني الذي لم يتجاوز السبع سنوات، شعرتُ بشيءٍ ينكسر في عمق جواتي؛ انكسارٌ له صوتٌ مرعب لم يسمعه أحد غيري.

لم أعد قادرة على حبس تلك الغصة التي خنقت أنفاسي؛ انفجرت دموعي وصارت تسيل بحرقة على خدودي، تاركةً خلفها خطوطاً من الوجع المبكر. كان قلبي الصغير يحترق بكل ما للكلمة من معنى، نارٌ تلتهم أماني الطفولي لأنني أدركتُ الحقيقة المُرّة: أنا الآن أفارق ماما. أفارق الوجه الذي يمنحني الطمأنينة، والحضن الذي يلوذ به خوفي. كانت كل خطوة أخطوها بعيداً عن عتبة البيت تبدو وكأنها تقتلع قطعة من روحي، وتتركني وحيدة في

"... كانت كل خطوة أخطوها
بعيداً عن عتبة البيت
تبدو وكأنها تقتلع قطعة من روحي،
وتتركني وحيدة في مواجهة هذه
الحياة الثانية التي تنتظرنا.
مسح بابا دموعي بكفّه المتعبة دون أن
ينطق بكلمة واحدة؛ فالصمت في تلك
اللحظات كان أبلغ من أي كلام، وعيونه
كانت تحكي عجزاً لم أفهمه إلا بعد
سنوات. سار بنا في غياهب تلك الليلة
الباردة، وأنا أتلفت خلفي، أودع تفاصيل
المنزل، ورائحة أمي المطبوعة على
جدرانه. كنا نسير نحو قدرٍ جديد، ثلاثة
أطفال تحميهم ذراعا أبٍ مكسور،
ورضيعة لا ذنب لها سوى أنها ولدت في
توقيتٍ خاطئ من زمن العواصف.
حين وصلنا إلى بيت جدي، فُتح الباب
الكبير ليعلن رسمياً إغلاق كتاب طفولتي
الأولى.

استقبلتنا الوجوه بنظراتٍ
تراوحت بين الشفقة والوجوم.
وضع بابا حقائبنا الصغيرة في زاوية الغرفة،
وتلك الحقائب لم تكن تحوي ملابسنا وفقط،
بل كانت تحمل شتات عائلة بأكملها.
وفي تلك الليلة الأولى، نمتُ وأنا أضم أخي
بقوة، وعيني لا تفارق سرير أختي الرضيعة
التي كانت تبكي بمرارة، تبحث بنحيبها
الطفولي عن صدر أمها وغذائها الأول،
لترتشف بدلاً منه حليباً صناعياً بارداً في زجاجة
غريبة عليها. نَمنا جميعاً والدموع تجف على
خدودنا، لنستيقظ في الصباح التالي على
واقعٍ جديد، وقواعد جديدة، وبيئة لم نعتد
عليها، حيث لا مجال للدلال، ولا مكان لضعف
الطفولة.
لقد انقضت المرحلة الأولى من الوجع، وأُسدل
الستار على بيت أمي الدافئ، لنبدأ في الغد
أولى خطواتنا في مدرسةٍ من نوع آخر؛
مدرسة الحياة القاسية في بيت جدي."

تمهيد للفصل الثالث

"طوينا صفحة الماضي مرغمين، ودخلنا بوابة 'الحياة الثانية' التي لم نخترها. لم أكن أعلم وأنا ابنة السبع سنوات أن الانتقال إلى بيت جدي لن يكون مجرد تغيير لعنوان السكن، بل كان مواجهة حقيقية مع وجوهٍ جديدة، وأطباعٍ جافة، واختباراتٍ يومية ستجعلني أكبُر قبل الأوان بأعوام طويلة.

فما الذي كان يخبئه لنا ذلك البيت الكبير وراء أبوابه المغلقة؟ وكيف سأتحمل أنا وأخي مسؤولية حماية أختنا الرضيعة وسط أجواءٍ تخلو من حنان الأم؟ وهل سننجح في التأقلم، أم أن عواصف بيت جدي ستقتلع ما تبقى من براءتنا؟

الفصل الثالث
كبرت قبل الأوان...
أمومة السابع سنوات

"يقولون

إن الأمومة غريزة

تولد مع المرأة حين تكبر، لكنها معي ولدت وعمري سبع سنوات؛ ولدت من رحم الحاجة، والدموع، وصوت نحيبٍ طفليّ مزّق سكون ليلتي الأولى في بيت جدي.

في ذلك الصباح الأول، لم أستيقظ على رائحة القهوة أو صوت أمي الحنون وهي توقظني للمدرسة، بل استيقظتُ على صرخة جوعٍ حادة أطلقتها أختي الرضيعة. نظرتُ حولي في الغرفة الجديدة الغريبة، فاستقبلتني جدرانٌ باردة لا تشبه جدران بيتنا. كان أخي لا يزال نائماً، يهرب بأحلامه من واقعنا الجديد، وبابا قد غادر باكراً إلى شغله ليوفر لنا لقمة العيش وسط هذه الأزمة.

وجدتُ نفسي
وجهاً لوجه أمام مسؤولية مرعبة؛
طفلة الأربعين يوماً تبكي بين يدي،
وأنا ابنة السبع سنوات التي تحتاج
لمن يضمها ويداوي كسر قلبها،
تعيّن عليّ فجأة أن أتحول إلى 'أمّ'.
تذكرتُ في تلك اللحظة كيف كانت
أمي تمسك زجاجة الحليب، وكيف
كانت تهزها برقة لتنام. تقدمتُ
بخطى مرتجفة نحو المطبخ البارد،
وعيون أهل البيت تراقب حركاتي
المرتبكة، وبدأتُ أتعلم أول دروس
الأمومة الإجبارية: كيف أعدّ رضعة
صناعية دافئة لأختي، وأنا كلي
حاجة لدفءٍ فُقد ولن يعود..."

"تحمل

الأيام الأولى

في الغربة دائماً وطأة ثقيلة على النفس؛ فالطفل لا يفهم من الحياة سوى الوجوه التي ألِفها، وغياب أمي ترك في روحي فجوة عميقة لا يملؤها شيء. كنتُ أمشي في زوايا هذا البيت الكبير كظلٍ باهت، أبحث بين تفاصيله عن زاوية تشبه غرفتي القديمة، وعن رائحةٍ تعيد لي الأمان الذي سُلب مني عنوة. عشتُ تلك الفترة في صراعٍ صامت بين واقعٍ جديد يفرض نفسه، وقلبٍ صغير يتمزق في كل ليلة شوقاً إلى الصدر الذي فُطم منه مبكراً.

لكن

رحمة الله

لم تتركنا وحيدين في مهب الريح؛ فقد فتح لنا بيت جدي أبواباً من الحنان الدافئ لم نكن نتوقعها وسط عواصف الفقد. كانو بيت جدي كتير مناح معنا ومعملتون منيحة وكان جدو كانو اب النا وكانت تيتة كانو ام النا كانت تيتة تفيقا للمدرسة وتلبسنا وطعمينا ودير بالها ع اختي الصغيرة حتى تصير منيحة وتبطل مرضانة بس انا كتير كتير شتقت لامي وحضن امي.

لم يكن هذا الدفء الذي أحاطنا به جدي وجدتي مجرد واجبٍ عائلي، بل كان بلسماً يحاول مداواة جراحنا النازفة.

كانت تيتة

بحنوّها الفياض تقف في الصباح تمسح على رؤوسنا، وتغمر أختي الرضيعة بقلب الأم لتخفف عنها وعثاء المرض وتزرع في جسدها الصغير العافية من جديد. وكان جدو يحيطنا بظله القوي ليعوضنا عمن غابوا، حتى أصبح لنا الحصن المنيع الذي نلتجئ إليه من قسوة الأيام. ومع كل هذا الكرم والحب الكبير الذي أحاطونا به، كان الشوق لأمي يظل غصة راسخة في حلقي؛ شوقٌ طاغٍ لا يعرف منطقاً، يهمس في أعماقي مع كل مغيب شمس: ليت هذا الحضن الدافئ كان حضن أمي."

"لم يكن
بيت جدي مجرد جدرانٍ تأوي شتاتنا، بل كان واحةً من الأمان وملاذاً حنوناً فتح ذراعيه ليتلقفنا في أصعب لحظات عمرنا. لقد غمرونا بحبٍ صادق لم يدع في قلوبنا الصغيرة مجالاً للشعور باليتم أو الضياع؛ فكانوا يحيطوننا بالرعاية والاهتمام في كل تفصيلة صغيرة وكبيرة، ويبذلون كل ما في وسعهم ليرسموا البسمة على وجوهنا ويمسحوا عن عيوننا آثار تلك الصدمة القاسية.

كان جدي

هو السند المتين

والعمود الذي نتكئ عليه، فبسط لنا من هيبته وحنانه ظلاً يحمينا، وتولى أمرنا وكأننا أولاده الذين لم ينجب سواهم. أما جدتي، فكانت النبع الذي لا ينضب من الطيبة والدفء؛ تسهر على راحتنا، وتغزل من دعواتها في جوف الليل غطاءً يقينا برد الخوف والقلق. لقد تحول بيت جدي بفضل قلوبهم الكبيرة من مجرد مسكنٍ بديل إلى بيتنا الحقيقي الذي نجد فيه كرامتنا، وحريتنا، وضحكاتنا التي ظننا أنها رحلت إلى الأبد؛ فصنعوا لنا ذكرياتٍ جديدة دافئة، ستظل محفورة في وجداننا كدليلٍ على أن الله يرسل دائماً الطيبين ليرمموا ما كسرته الظروف."

"وفي كل ركنٍ
من أركان ذلك البيت،
كانت هناك تفاصيل تروي حكاية
حبٍّ واحتواء لا يقدّر بثمن. كان جدي
لا يدخل البيت إلا ويداه محملتان بما
يبهج قلوبنا؛ يحرص على أن لا
ينقصنا شيء، وكان يجلس معنا
ليمسح على رؤوسنا ويستمع
لقصصنا الصغيرة في المدرسة
بكامل اهتمامه، وكأن كلامنا هو
أهم ما في يومه. منحنا جدي الأمان
الذي افتقدناه، وجعلنا نشعر بأننا
في حماه، وأن أحداً في هذا العالم
لا يمكنه أن يؤذينا أو يكسر خاطرنا
ما دام حياً يُرزق.

أما جدتي،

فكانت تفيض حناناً يملأ أرجاء المكان؛

لم تكن تفرّق بيننا وبين أي فردٍ آخر في العائلة، بل خصّتنا بمرتبةٍ دافئة في قلبها. كانت تتابع تفاصيل دراستنا، وتحرص على أن نأكل جيداً، وتصنع لنا بيديها الدافئتين الوجبات التي نحبها. وحين كانت أختي الصغيرة تشتد عليها وعكات الرضيعة وصعوبة المرض، كانت جدتي تسهر الليل بطوله، تهزّ سريرها الصغير بحنان، وتدندن لها بأعذب الكلمات لتنام، دون أن تشتكي يوماً من تعب أو ثقل.

لقد كانت معاملتهم لنا تفوق الوصف؛ لم نشعر يوماً بأننا ضيوف أو عبء، بل عشنا في بيت جدي معززين مكرمين، وكأننا قطعٌ من أرواحهم. زرعوا فينا القوة، وأعادوا لقلوبنا الطفولية توازنها بعد الهزة الكبرى، ليثبتوا لنا كل يوم أن العائلة الحقيقية هي التي تفتح ذراعيها لك في وقت العاصفة وتمنحك الدفء دون مقابل."

"إذا كان غياب
أمي وفراقها هو الكسر الأعظم
الذي شرخ أرواحنا الطفولية،
فإن حنان تيتة كان هو الجبر الإلهي الذي رتّق ذلك الانكسار. لقد جئنا إلى بيتها ونحن نحمل في قلوبنا جروحاً غائرة، وشتاتاً لا يقوى على حمله الكبار، فاحتضنتنا بقلبها الواسع لتعيد تشكيل عالمنا من جديد.

كان حنانها بمثابة طوق النجاة لي ولأخي ولأختي الرضيعة.

كلما داهمنا الخوف أو باغتتنا غصة الشوق في عتمة الليل، كانت تيتة تمد يديها الدافئتين لتمسح على قلوبنا، وكأنها تضمد جراحنا يوماً بعد يوم. لقد جبرت خاطري كطفلة أُلقيت عليها مسؤولية أكبر من عمرها، وجبرت ضعف أخي الذي كان يبحث عن الأمان، وصارت لأختي الرضيعة الأم البديلة التي غمرتها بالحب حتى تماثلت للشفاء وعادت الضحكة لثغرها الصغير. لقد أثبتت لنا تيتة بأفعالها أن حنوّ الأجداد قادرٌ على ترميم القلوب المكسورة، وأن الله إذا أخذ من الطفل حناناً، يسخر له من فيض طيبة الطيبين ما يجبر خاطره ويداوي روحه."

"ومع مرور الأيام والشهور

تحت سقف بيت جدي،

بدأت ملامح تلك الحياة الثانية تتضح وتترسخ في أعماقنا.

لم يعد المكان غريباً، ولا عادت الوجوه غامضة، بل تحولت تفاصيل هذا البيت إلى جزءٍ من يومياتنا بفضل ذلك الجبر العظيم الذي حظينا به. كانت تيتة تحرص على أن تمحو من عيوننا أي أثرٍ للانكسار؛ فإذا جاء المساء، جمعتنا حولها لتسمع منا كيف قضينا يومنا في المدرسة، وتكافئ تفوقنا بابتسامةٍ ودعاءٍ يفتح لنا أبواب الأمل.

أما أختي الرضيعة، فقد بدأت عافيتها تعود تدريجياً بفضل سهر تيتة ورعايتها الفائقة. بدأت ملامح الخوف تزول عن وجهها الغض، وحلّت مكانها ضحكات طفولية بريئة ملأت أرجاء البيت بهجة. كان أخي الصغير قد استعاد جزءاً كبيراً من طمأنينته، وصار يتحرك في البيت بثقة صبيٍّ يعرف أن وراءه ظهراً يستند إليه، وجداً يحميه، وجدةً تدثره بصلواتها وحنانها كلما غفت عيناه.

لقد كنا نعيش في تلك الفترة حالةً من التوازن العجيب؛ فبقدر ما كان الفقد قابعاً في زاويةٍ من أرواحنا، كان دلال بيت جدي وكرمهم يحيط بنا كالسياج المنيع. تعلمنا كيف نضحك من جديد، وكيف نلعب ونركض في فناء البيت الواسع دون أن نشعر بأننا غرباء أو ضيوف ثقال. صنعوا لنا وطناً صغيراً بداخل وطنهم، وأثبتوا لنا بأفعالهم اليومية أن جراح الطفولة، وإن تركت ندوباً، فإنها تلتئم حين تجد القلوب الصادقة التي تعرف كيف تمنح الحب دون شروط."

تمهيد للفصل الرابع

عشنا في كنف جدي وجدتي أياماً وسنوات، كبرنا فيها معززين مكرمين، وتذوقنا معهم طعم الاستقرار والأمان بعد العاصفة التي زلزلت طفولتنا المبكرة. صار بيت جدي هو ملاذنا الحقيقي، وحضن تيتة هو المرفأ الذي نرسي فيه مراكبنا المتعبة، وجدو هو الحصن الذي نلوذ به من تقلبات الأيام؛ فحملنا معهم ذكرياتٍ دافئة أعادت لدفاتر تلويني ألوانها، ولحياتنا بهجتها الضائعة.

لكن الأقدار لا تبقى على حالٍ واحدة، والزمن الذي يمنحنا الهدوء قد يخبئ لنا وراء الأفق فصولاً جديدة لم تكن في الحسبان. كبرتُ أنا، وكبر أخي، وبدأت أختي الرضيعة تخطو خطواتها الأولى وتناغي الكلمات وتكبر بعيداً عن عين أمها، لتطرح الأيام علينا أسئلة جديدة وأكثر عمقاً مع دخولنا مرحلة جديدة من العمر.

فما الذي ينتظرنا في المحطة القادمة بعد أن اشتد عودنا؟ وكيف ستتبدل الأحوال حين نكبر وتبدأ ملامح الماضي المفقود بالظهور في أذهاننا من جديد؟ وكيف ستواجه طفلة الأمس، التي صارت اليوم أكثر وعياً، تفاصيل الحياة الخارجية بمفردها؟

هذا ما سنفتحه من صفحات، ونرويه من تفاصيل مشوقة ومؤثرة في: (الفصل الرابع: ملامح الغد.. وعيٌ جديد وخُطى نحو المجهول)."

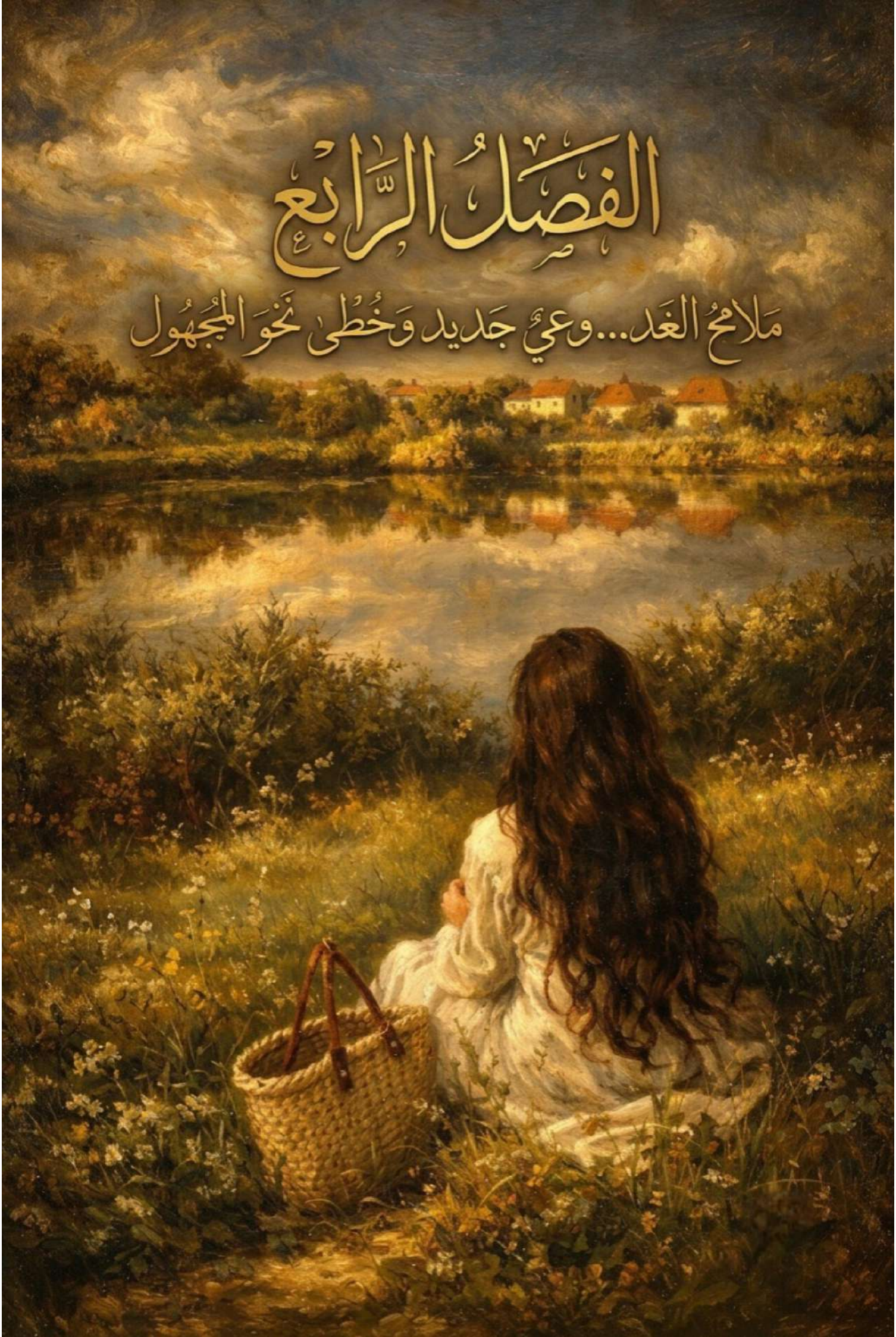
الفصل الرابع
ملامح الغد... وعيٌ جديد وخطى نحو المجهول

"تتسارع خطى السنين
دون أن نشعر،
وتحملنا الأيام معها لنكبر رغماً عنا، فتنضج عقولنا وتتغير نظرتنا للأشياء من حولنا. لم أعد تلك الطفلة الصغيرة في الصف الأول التي تبكي خلف ابتسامة باهتة؛ فقد كبرتُ وكبر أخي، وبدأت أختي الرضيعة تكبر هي الأخرى وتتحرك في أرجاء بيت جدي، تملأ المكان بضحكاتها البريئة التي كانت بلسماً لجراحنا.
مع هذا العمر الجديد، بدأ يتشكل في داخلي وعيٌ مختلف؛ وعيٌ يطرح أسئلة أكبر من السابق، ويحاول البدء في فهم تفاصيل الماضي الذي عشته وعجز عقلي الصغير وقتها عن استيعابه. صرتُ أراقب تفاصيل حياتنا بدقة؛ أرى تعب بابا الذي يفني شبابه في الشغل لأجلنا، وألمس حنان تيتة وجدو الذي يزداد عمقاً وخوفاً علينا كلما كبرنا خطوة. لكن، وبقدر ما كان بيت جدي يحيطنا بالأمان ويجبر كسرنا، كان هناك شعورٌ خفيّ ينمو في أعماقي بأننا نقترب من عتبة مرحلة جديدة، وأن الخطى القادمة قد تحملنا نحو مجهولٍ آخر ينتظرنا خلف أبواب هذا البيت الدافئ..."

"... كان هناك شعورٌ
خفيّ ينمو في أعماقي
بأننا نقترب من عتبة مرحلة جديدة، وأن
الخطى القادمة قد تحملنا نحو مجهولٍ آخر
ينتظرنا خلف أبواب هذا البيت الدافئ.
كانت خطوط الحزن القديمة في قلبي قد
تلاشت خلف جدار الأمان الذي بنته لنا تيتة
وجدو، لكن وعيي الجديد كان يوقظ في
داخلي تفاصيل لم أكن أنتبه إليها وأنا
أصغر سناً. صرتُ في مرحلة دراسية جديدة،
ولم يعد مريول المدرسة مجرد ثوب
أرتديه، بل صار شاهداً على سنواتٍ مرت
وأنا أتعلم فيها كيف أكون قوية وصامدة.
كان أخي قد بدأ يظهر ملامح الشاب
الصغير الذي يعتمد عليه بابا، وتحمل في
عينيه نظرة مسؤولية مبكرة، يراقبنا بها
وكأنه الحارس الثالث لنا بعد جدي وجدتي.

أما الحدث الأكبر

الذي كان يزلزل هدوء قلبي

في تلك الفترة، فهو خروج أختي الصغيرة من عالم الرضاعة إلى عالم الكلام والحركة. بدأت تنطق كلماتها الأولى، وتخطو خطواتها المتعثرة في فناء بيت جدي. كانت تركض نحو تيتة وتناديها بكل عفوية وطيبة: 'ماما'.. كانت هذه الكلمة تخرج من ثغرها الصغير لتقع في قلبي كالجمر؛ تُشعرني بفرحة عارمة لأنها وجدت في تيتة الأم التي لم تحرمها الحنان، وفي ذات الوقت توقظ غصة قديمة في روحي.

كنتُ أنظر إليها وأتساءل بصمت: كيف سيكون شكل المواجهة حين تكبر هذه الصغيرة وتعرف الحقيقة كاملة؟ وكيف سنشرح لها أن الحضن الذي رباها هو حضن جدتها الحنون، وأن هناك أماً أخرى غابت خلف ستائر الظروف والمسافات؟ بدأ هذا الوعي يثقل كاهلي، وصرتُ أشعر أن الأيام الهادئة التي عشناها في كنف جدي وجدتي ليست سوى الهدوء الذي يسبق العاصفة، وأن المجهول يلوّح لنا من بعيد، حاملاً معه فصولاً جديدة من المواجهة مع الماضي..."

"... وفي يومٍ من الأيام،
وبينما كانت تفاصيل
الحياة تمضي بهدوء،
داهمني شعورٌ غريب ومفاجئ، شعورٌ نزع عني قناع القوة الذي ارتديته لسنوات. استيقظتُ في داخلي تلك الطفلة ابنة السبع سنوات، وتذكرتُ فجأة، وبكل وضوح، الحقيقة المريرة التي تناسيتها وسط الدفء البديل: أنا أعيش دون أمي، وبعيدةٌ عنها وعن عالمها.

في تلك اللحظة، هجمت على ذاكرتي تفاصيل حياتي الطفولية معها، وعادت ملامحها لتتجسد أمام عيني بوضوحٍ شديد. تذكرتُ كلامها العذب لي، ونبرة صوتها التي كانت تطرد الخوف من قلبي. تذكرتُ طقسها الحنون الذي افتقدته بشدة؛ تلك القبلة الدافئة التي كانت تطبعها على خدي بعد كل حمام، حيث كنتُ أشعر بيديها الرقيقتين وهما تلفاني بالدفء والأمان. تذكرتُ حنانها الذي لا يشبهه حنان، وضحكتها الصافية التي كانت تملأ البيت بهجة وتفرح قلبي الصغير

عادت هذه الذكريات
دفعة واحدة
لتشعل في صدري حنيناً جارفاً،
وكأن تلك السنوات التي عشتها
في بيت جدي تبخرت في لحظة.
نظرتُ إلى مرآتي، فرأيتُ طفلةً كبر
جسدها قليلاً، لكن روحها ما زالت
واقفة عند عتبة ذلك الباب القديم،
تبكي شوقاً لحضنٍ غادره جسدها
ولم تغادره روحها قط. انهمرت
دموعي حارقة، ووجدتُ نفسي أمام
حقيقةٍ قاسية: مهما بلغ حجم الجبر
والدلال في بيت جدي، سيبقى
هناك ركنٌ مظلم وبارد في قلبي لا
تضيئه سوى شمس أمي."

"... وانهمرت دموعي حارقة،
ووجدتُ نفسي أمام حقيقةٍ قاسية:
مهما بلغ حجم الجبر والدلال في بيت جدي، سيبقى هناك ركنٌ مظلم وبارد في قلبي لا تضيئه سوى شمس أمي.
لكن الأقدار لم تكتفِ بتلك الندبة القديمة، بل كانت تخبئ لنا انعطافاً آخر غير متوقع.
طوال تلك السنين، كان والدي يعيش معنا في بيت جدي، يغيب في عمله نهاراً ويعود ليشاركنا السقف ذاته ليلاً، وكان وجوده يمثل لنا نوعاً من الطمأنينة المتبقية من رائحة عائلتنا المتناثرة.
وبعد مرور تسع سنوات كاملة من العيش معاً تحت ذلك السقف، سنواتٍ كبرنا فيها وتغيرت ملامحنا، اتخذ أبي قراراً نزل علينا كالصاعقة؛ قرر أبي أن يتزوج ويؤسس حياة جديدة

وأن يخرج من بيت جدي
ليعيش لحاله في منزله الخاص.
أما نحن، فقد قُدِّر لنا أن نضل عند بيت جدي،
نعيش ونربى ونكبر بعيداً عنه أيضاً.
في تلك اللحظة، شعرتُ وكأن فصلاً جديداً من التخلي يُكتب علينا؛ فبعد أن فقدنا حضن الأم وبُترت طفولتنا مبكراً، ها نحن اليوم نودع حضور الأب اليومي في تفاصيلنا. ورغم أننا بقينا في المكان ذاته الذي احتضننا وجبر كسرنا، ورغم علمنا بأن جدي وجدتي هما الأمان الصادق لنا، إلا أن رحيل أبي ليعيش حياته المستقلة أيقظ في قلبي خوفاً قديماً من الفقد؛ خوفاً من أن نكون مجرد عابرين في حيوات الآخرين، حتى المقربين منا. وقفنا أنا وأخي وأختي، التي لم تعد رضيعة بل صارت واعية تفهم ما يدور حولها، نراقب حقائب أبي وهي تُغادر البيت، لنتساءل بصمت: كيف ستكون حياتنا القادمة دون وجود الأب، وتحت رعاية الجد والجدة اللذين صارا لنا كل شيء في هذا الوجود؟"

تتسارع خُطى السنين
دون أن نشعر،
وتحملنا الأيام معها لنكبر رغماً عنا، فتنضج عقولنا وتتغير نظرتنا للأشياء من حولنا. لم أعد تلك الطفلة الصغيرة في الصف الأول التي تبكي خلف ابتسامة باهتة؛ فقد كبرتُ وكبر أخي، وبدأت أختي الرضيعة تكبر هي الأخرى وتتحرك في أرجاء بيت جدي، تملأ المكان بضحكاتها البريئة التي كانت بلسماً لجراحنا.

ومع هذا العمر الجديد، بدأ يتشكل في داخلي وعيٌ مختلف؛ وعيٌ يطرح أسئلة أكبر من السابق، ويحاول البدء في فهم تفاصيل الماضي الذي عشته وعجز عقلي الصغير وقتها عن استيعابه.

صرتُ أراقب
تفاصيل حياتنا بدقة؛
أرى تعب أبي الذي يفني شبابه في العمل لأجلنا، وألمس حنان جدتي وجدي الذي يزداد عمقاً وخوفاً علينا كلما كبرنا خطوة. لكن، وبقدر ما كان بيت جدي يحيطنا بالأمان ويجبر كسرنا، كان هناك شعورٌ خفيّ ينمو في أعماقي بأننا نقترب من عتبة مرحلة جديدة، وأن الخطى القادمة قد تحملنا نحو مجهولٍ آخر ينتظرنا خلف أبواب هذا البيت الدافئ.

وفي يومٍ من الأيام، وبينما كانت تفاصيل الحياة تمضي بهدوء، داهمني شعورٌ غريب ومفاجئ، شعورٌ نزع عني قناع القوة الذي ارتديته لسنوات. استيقظتُ في داخلي تلك الطفلة ابنة السبع سنوات، وتذكرتُ فجأة، وبكل وضوح، الحقيقة المريرة التي تناسيتها وسط الدفء البديل: أنا أعيش دون أمي، وبعيدةٌ عنها وعن عالمها.

في تلك اللحظة،
هجمت على ذاكرتي
تفاصيل حياتي الطفولية معها، وعادت ملامحها لتتجسد أمام عيني بوضوحٍ شديد. تذكرتُ كلامها العذب لي، ونبرة صوتها التي كانت تطرد الخوف من قلبي. تذكرتُ طقسها الحنون الذي افتقدته بشدة؛ تلك القبلة الدافئة التي كانت تطبعها على خدي بعد كل استحمام، حيث كنتُ أشعر بيديها الرقيقتين وهما تلفاني بالدفء والأمان. تذكرتُ حنانها الذي لا يشبهه حنان، وضحكتها الصافية التي كانت تملأ البيت بهجة وتفرح قلبي الصغير من أعماقه.

عادت هذه الذكريات

دفعة واحدة لتشعل في صدري حنيناً جارفاً، وكأن تلك السنوات التي عشتها في بيت جدي تبخرت في لحظة. نظرتُ إلى مرآتي، فرأيتُ طفلةً كبر جسدها قليلاً، لكن روحها ما زالت واقفة عند عتبة ذلك الباب القديم، تبكي شوقاً لحضنٍ غادره جسدها ولم تغادره روحها قط. انهمرت دموعي حارقة، ووجدتُ نفسي أمام حقيقةٍ قاسية: مهما بلغ حجم الجبر والدلال في بيت جدي، سيبقى هناك ركنٌ مظلم وبارد في قلبي لا تضيئه سوى شمس أمي.

لكن الأقدار لم تكتفِ بتلك الندبة القديمة، بل كانت تخبئ لنا انعطافاً آخر غير متوقع. طوال تلك السنين، كان والدي يعيش معنا في بيت جدي، يغيب في عمله نهاراً ويعود ليشاركنا السقف ذاته ليلاً، وكان وجوده يمثل لنا نوعاً من الطمأنينة المتبقية من رائحة عائلتنا المتناثرة.

وبعد مرور تسع سنوات كاملة من العيش معاً تحت ذلك السقف، سنواتٍ كبرنا فيها وتغيرت ملامحنا، اتخذ أبي قراراً نزل علينا كالصاعقة؛ إذ قرر أن يتزوج ويؤّسس حياة جديدة، وأن يخرج من بيت جدي ليعيش بمفرده في منزله الخاص، بينما قُدِّر لنا نحن أن نبقى في بيت جدي، نعيش ونربى ونكبر بعيداً عنه أيضاً.

في تلك اللحظة، شعرتُ وكأن فصلاً جديداً من التخلي يُكتب علينا؛ فبعد أن فقدنا حضن الأم وبُترت طفولتنا مبكراً، ها نحن اليوم نودع حضور الأب اليومي في تفاصيلنا. ورغم أننا بقينا في المكان ذاته الذي احتضننا وجبر كسرنا، ورغم علمنا بأن جدي وجدتي هما الأمان الصادق لنا، إلا أن رحيل أبي ليعيش حياته المستقلة أيقظ في قلبي خوفاً قديماً من الفقد؛ خوفاً من أن نكون مجرد عابرين في حيوات الآخرين، حتى المقربين منا. وقفنا أنا وأخي وأختي، التي لم تعد رضيعة بل صارت واعية تفهم ما يدور حولها، نراقب حقائب أبي وهي تُغادر البيت، لنتساءل بصمت: كيف ستكون حياتنا القادمة دون وجود الأب، وتحت رعاية الجد والجدة اللذين صارا لنا كل شيء في هذا الوجود؟

مرت الأيام
بعد رحيل أبي
واستقراره في بيته الجديد، لتثبت لنا من جديد أن بيت جدي هو الحصن الذي لا يتخلى عنا أبداً. لم يجعلنا جدي ولا جدتي نشعر بأي فراغ؛ بل ضاعفوا حنانهم واحتواءهم لنا، وصاروا يحيطوننا برعايةٍ فاقت كل ما مضى، كأنهم يعوضوننا بقلوبهم الكبيرة عن غياب الأب والأم معاً.
كبرنا في ذلك البيت وتوالت السنين؛ صرتُ أنا فتاةً واعية، وأخي شاباً صغيراً يعتمد على نفسه ويتحمل المسؤولية، وأختي الصغيرة التي كانت يوماً رضيعة الأربعين يوماً، كبرت وأصبحت تملأ البيت بذكائها، وتدرس وتتفوق في مدرستها. تشاركنا مع جدتي وجدي تفاصيل الأيام، من جلسات الشتاء الدافئة حول المدفأة، إلى فرحة النجاح في نهاية كل عام دراسي.

ورغم أن الشوق لأمي
ظل مخبأً في زاويةٍ صامتة من
قلبي، ورغم أن صورة عائلتنا الأولى
كانت حكايتها قد انتهت، إلا أننا
صنعنا في بيت جدي حياةً حقيقيةٍ
مليئة بالكرامة، والعزة، والحب
الصادق الذي جبر كل انكسارات
الماضي.
لقد طوينا في هذا البيت فصول
الطفولة بكل ما فيها من دموعٍ
وحنين، واشتد عودنا وأصبحنا نقف
على أرضٍ صلبة، مستعدين
لمواجهة العالم الخارجي وعتبات
المستقبل التي بدأت تفتح أبوابها
أمامنا.

تمهيد للفصل الخامس

عشنا سنواتٍ طويلة في كنف جدي وجدتي، سنواتٍ كانت بمثابة مدرسةٍ حقيقية صقلت شخصياتنا وعلمتنا معنى الصبر والوفاء. في ذلك البيت، كبرتُ أنا وإخوتي معززين مكرمين، ورأينا بأعيننا كيف يصنع الحنان الصادق معجزاتٍ في ترميم الأرواح المكسورة. ودعنا مرحلة الطفولة بحلوها ومرها، وأصبحنا نقف اليوم على مشارف مرحلةٍ جديدة؛ مرحلة الشباب والمستقبل، حيث تتغير الأدوار وتبدأ خطواتنا الفعلية في شق طريقنا في هذه الحياة.

لكن الكبر والوعي الكامل يفرض علينا دائماً مواجهاتٍ من نوعٍ آخر. فما الذي يخبئه لنا الغد بعد أن كبرنا واشتد عودنا؟ وكيف ستكون علاقتنا بالماضي وبالأطراف التي غادرت حياتنا يوماً ما؟ وكيف سنرد لبيت جدي ذلك الدين العظيم الذي طوقوا به أعناقنا طوال سنين كفاحهم معنا؟ هذا ما سنفتحه من صفحات، ونرويه من تفاصيل جديدة في: (الفصل الخامس: بذور النضج.. ثمار الصبر وبداية الطريق).

الفصل الخامس
بذور الضجيج... ثمار الصبر وبداية الطريق

"يقاس العمر بالسنوات،
ولكن النضج تقيسه المواقف والمسؤوليات التي تُلقى على عاتقنا قبل الأوان.
دخلنا عتبات هذا الفصل الجديد من حياتنا ونحن نحمل في ملامحنا هدوء الصابرين، وقوة من واجهوا العاصفة في طفولتهم المبكرة فصارت قلوبهم لا تهاب الرياح.
لم نعد أولئك الأطفال الصغار الذين يحتاجون إلى من يوجه خطواتهم في كل حين؛ فقد أثمرت سنوات الرعاية الطويلة والغرس الطيب في بيت جدي، واشتد عودنا لنقف على مشارف المستقبل ثابتين. أخي الذي غدا شاباً يافعاً، وأنا التي نضجتُ وتجاوزتُ عثرات الأمس، وأختي الصغيرة التي كبرت تحت ناظرينا وفي حضن جدتي الحنون لتصبح زهرة البيت ومصدر فخره بتفوقها.
كنا نتأمل تفاصيل يومنا ونحن نشعر بأننا نقف على أرضٍ صلبة، شققنا طريقنا في دراستنا وحياتنا بجدٍّ واجتهاد، وكان كل نجاحٍ نحققه هو بمثابة باقة وردٍ نقدمها لجدتي وجدي، لنقول لهما بصوت الفخر: 'إن تعبكم لم يذهب سدى'! بدأت ملامح الغد تتضح أمامنا كطريقٍ نخطوه بثقة، حاملين معنا بذور النضج التي سُقيت بدموع الشوق القديم، ومستعدين لقطف ثمار الصبر الذي علمتنا إياه الأيام الباردة..."

"كانت خطواتنا
نحو المستقبل

محكومةً برغبةٍ عارمة في إثبات الذات، وكأننا كنا في سباقٍ صامت مع الزمن لنبرهن للعالم أن اليتم من حضن الوالدين لا يعني الانكسار، وأن الغرس الذي رعاه جدي وجدتي لا يمكن إلا أن يثمر شموخاً ونجاحاً.

شققنا طريقنا في مقاعد الدراسة والتعليم بكفاحٍ حقيقي؛ فكل صفحةٍ كنا نطويها، وكل درجة تفوقٍ كنا نحرزها، كانت بمثابة رسالة شكرٍ صامتة نرفعها إلى السماء، وإلى ذراعيّ تيتة وجدو اللذين وهبانا عمرهما بلا تردد.

غدوتُ أنا فتاةً يافعة، تحمل في عينيها نظرة وعيٍ حادة، وتتحمل مسؤولية نفسها وإخوتها بكثير من الحكمة التي استمدتها من مدرسة الأيام القاسية.

وأخي، ذلك الصبي الذي كان يزرر لي قميص المدرسة بيدين مرتعشتين، اشتد ساعده وصار رجلاً يُعتمد عليه، يسير في الحياة بخطى واثقة كالسند الذي يحمي ظهورنا. أما صغيرتنا، طفلة الأربعين يوماً، فقد كبرت وأزهرت في فناء بيت جدي، وصارت تلميذةً ذكية يشار إليها بالبنان لتفوقها وأدبها، تملأ البيت حيويةً وتزرع الابتسامة في وجه جدي وجدتي كلما أقبلت عليهما بشهادة نجاحٍ جديدة.

ورغم هذا النضج وهذا الاستقرار الذي صَنعناه بأيدينا وبعرق جبين أجدادنا، إلا أن الحياة لم تخلُ من التفافاتٍ تجعلنا نتأمل بعين الحذر والترقب. فكلما خطونا خطوةً نحو الأمام، وكلما برزت ملامح نجاحنا في المجتمع، كنا نلمس تغيراً في نظرات المحيطين بنا، وحتى في تواصل الأطراف التي غابت عن طفولتها يوماً. صرنا نقف على أرضٍ صلبة، نعم، ولكننا نعلم أن طريق الشباب يخبئ خلفه مواجهاتٍ واختياراتٍ مصيرية، تتطلب منا قوةً أكبر من تلك التي واجهنا بها شتاء الخسارات الأول."

"كانت مائدة الطعام في بيت جدي لم تعد مجرد مكانٍ لتناول الزاد، بل غدت منبراً للفخر والاعتزاز. كنا نلتف حول جدي وجدتي، ولم نعد أولئك الأطفال الانكساريين الذين يبحثون عن مأوى، بل أصبحنا ملء السمع والبصر؛ شباباً يافعين يرفعون رأس العائلة عالياً بأدبهم وكفاحهم. كان جدي ينظر إلينا وابتسامة الرضا ترتسم على وجهه المليء بالتجاعيد، وكأنه يرى فينا حصاد السنين الطويلة التي قضاها في حمايتنا، وكانت جدتي تدعو لنا في صلواتها آناء الليل وأطراف النهار، وتلمس وجوهنا بيديها الدافئتين وكأنها تضمد آخر ما تبقى من جراح الماضي.

لقد أصبحنا نعتمد على أنفسنا كلياً؛ أخي شق طريقه في معترك العمل والحياة بصلابة، وبدأتُ أنا أضع بصمتي في محيطي بعزيمة لا تلين، بينما كانت صغيرتنا المتفوقة تواصل حصد المراتب الأولى في مدرستها، وتثبت لكل من رآها أن التي تربت في حضن جدتها قادرة على أن تتحدى كل الظروف وتصنع المستحيل. تحولت تلك الغصة القديمة في قلوبنا إلى وقودٍ يدفعنا نحو التميز، وصرنا ندرك أن الحياة وإن حرمتنا في البداية من أساسيات الأمان، فقد عوضتنا بقلبين طاهرين علّمانا كيف نكون ملوكاً في كرامتنا وعزتنا.

ومع ذلك، فإن بذور النضج التي نمت في أعماقنا جعلتنا نرى الأمور على حقيقتها دون زيف. كبرنا وأدركنا أن الأب الذي اختار حياته المستقلة، والأم التي أبعدتها العواصف، صارا جزءاً من كتابٍ قديم نقرأه بوعي وتسامح، لكن دون أن يهز استقرارنا الحالي. لقد أصبحت خيوط مصيرنا بين أيدينا، وبدأنا نخطو بثقة نحو معترك الحياة الأكبر، مدفوعين ببركة دعاء تيتة وحماية جدو، ومستعدين لكتابة السطور الأخيرة من حكايتنا التي بدأت بدمعة طفلة في الصف الأول، وتوجت بشموخ شبابٍ واجهوا المستحيل وانتصروا عليه."

"وتوالت الفصول

حتى بلغتُ المحطة الأهم في مسيرتي الدراسية؛ إذ صرتُ في مرحلة الشهادة الثانوية 'البكالوريا' فرع الأدبي. كانت تلك السنة بمثابة تحدٍّ كبير لروحي وعقلي، فالدراسة الأدبية تحتاج إلى فيضٍ من المشاعر والتركيز، وأنا التي طالما صاغت الأيام مشاعرها بالوجع، وجدتُ في السطور والكتب ملاذاً أفرغ فيه طاقة التحدي التي كبرت معي. كنتُ أسهر الليالي الطوال ألتهم الكتب، وبجانبي تيتة تدعو لي، وجدو يرقبني بعينين تملؤهما الهيبة والأمل في أن يرى حفيدته تحقق انتصاراً جديداً.

ومرت أيام القلق والانتظار، وجاء اليوم الحاسم وحصدتُ ثمرة كفاحي وتفوقي؛ لقد نجحتُ في البكالوريا، وعمت الزغاريد أرجاء بيت جدي، وامتزجت دموع الفرح بدعوات تيتة التي ضمتني إلى صدرها بحرارة، وقبلة جدو الصادقة على جبيني التي أشعرتني بأنني ملكتُ العالم.

كان نجاحاً باهراً،
واحتفالاً تليق بهجة تفاصيله بعائلةٍ كافحت من أجلنا لسنوات.
ولكن، ورغم كل هذا الصخب الجميل، ورغم الفخر الذي ملأ صدري، انسلّت من بين ثنايا الفرح غصةٌ حارقة جرحت قلبي؛ فقد كانت فرحتي ناقصة، ومبتورة من أطرافها. التفتُ حولي وسط المهنئين، وبحثت عيناي تلقائياً في وجوه الحاضرين عن أمي وأبي.. تمنيتُ لو أن أمي كانت هنا لتزغرد لي وتضمني بحنانها الذي تذكرتُ قبلاته، وتمنيتُ لو أن أبي كان واقفاً بجانبي ليفخر بابنته التي اشتد عودها.
كان شعوراً قادماً من عمق الوجع القديم: كيف لحدثٍ بهذا الحجم، وفرحةٍ بهذا الصفاء، أن تمرّ وأنا أعيشها دون وجود أمي وأبي معي؟ لقد أدركتُ في تلك اللحظة بالذات، أن نجاحات الحياة مهما بلغت قمتها، تبقى في عين اليتيم من حضن والديه لوحةً ناقصة الألوان، تفتقر إلى النظرة الأولى التي يبحث عنها كل أبناء العالم في عيون أمهاتهم وآبائهم لحظة الانتصار."

"ولم يكن
توقفي عن الدراسة الجامعية نهاية الحكاية، بل كان البداية الحقيقية لولادة حلمٍ كبير طالما سكن وجداني. في تلك الفترة، والتزاماً بالروح الأدبية التي نمت في أعماقي منذ البكالوريا، قررتُ أن أواجه الحياة بسلاحٍ آخر؛ سلاح الكلمة. بدأتُ أكافح بكل قوتي من أجل تحقيق حلمي القديم في أن أصير كاتبة، وأن أحول كل تلك المشاعر المكبوتة، والغصات العتيقة، والدموع التي سالت على خدودي، إلى نصوصٍ نابضة تلامس قلوب البشر.

أمسكتُ بالقلم
وكأنني أمسك بطوق نجاة،
وشرعتُ في خطّ أولى كلماتي؛ أفرغتُ في الورق حنيني لأمي، وفقداني لأبي، وجبر تيتة وجدو الذي أنقذ طفولتي وإخوتي. لم يكن الطريق مفروشاً بالورود، بل تطلب مني صبراً وإصراراً لا يلين، حتى بدأتُ أخطو بثباتٍ في عالم النشر. بدأتُ أشارك بنصوصي في كتبٍ مشتركة، وأبهرت الكلمات من حولي، ولم تمضِ فترة طويلة حتى تكلل هذا الكفاح بأعظم إنجازٍ كنتُ أرقبه بكثير من الشغف: صار لي كُتبٌ تحمل اسمي، وتزين رفوف المكتبات.

حين أمسكتُ كتابي الأول الذي يحمل اسمي على غلافه، شعرتُ بغصة الفرح الناقصة ذاتها؛ تمنيتُ لو أن أمي وأبي يشهدان هذه اللحظة، ليريا كيف أن الطفلة التي تركاها وحيدة في مهب الريح، قد صنعت من ضعفها قوة، ومن حزنها أدباً يُقرأ. ومع ذلك، كانت دموع الفخر في عيون تيتة وجدو وجلسة أخي وأختي حولي بالدنيا وما فيها. لقد أثمرت بذور النضج أخيراً، وتحول شتاء الخسارات القاسي إلى ربيعٍ من الكلمات يروي قصة صمودنا للعالم أجمع."

"ورغم بريق النجاح وجاذبية اللقب الذي حلمتُ به طويلاً، إلا أن قلمي كاتبَتي كان يأبى إلا أن يغمس حبره في محبرة الوجع القديم. كلما جلستُ أكتب صفحةً جديدة، وأرى اسمي يلمع على أغلفة الكتب، كانت تلك الطفلة ابنة السبع سنوات تطل من بين السطور، لتذكرني بأن هذا المجد كله لم يستطع أن يسد رمق الشوق في صدري، ولم يفلح في تعويض غياب ذلك الحضن الذي فُطمتُ منه قبل الأوان.

كنتُ أقف في معارض الكتاب، أرى الأمهات والآباء يضمون بناتهم فخراً بنجاحهن، فأعود بذاكرتي إلى الوراء، إلى الليلة الباردة التي جلسنا فيها ننتظر عودة أبي ليمضي بنا نحو 'الحياة الثانية'. تساءلتُ بكثير من المرارة: هل تصل كلماتي إلى أمي؟ هل تقرأ نصوصي وتبكي على طفولتي كما أبكي أنا؟ وهل يعلم أبي أن ابنته التي تركها تكبر في كنف جدي قد أصبحت اليوم كاتبةً يقرأ لها الغرباء، بينما يجهل الأقربون نبض قلبها؟

لقد كان كفاحي في عالم الكتابة محاولةً مستمرة للهروب من الفقد، لكنني كلما هربتُ خطوة، وجدتُ نفسي أعود مكسورةً لندبتي الأولى. كبرتُ وصار لي اسمٌ يتردد، لكنني في عتمة الليل أظل تلك الصغيرة التي تبحث عن قبلة أمها بعد كل حمام، وتبكي بصمتٍ تحت لحافها لكي لا توقظ أخي وأختي. أدركتُ متأخرةً أن بعض الخسارات لا تُعوّض، وأن فِراق الأم هو جرحٌ أبدي لا تبرئه كتب الدنيا ولا تصفيات الحساب مع الزمن؛ جرحٌ يسكن أدق تفاصيل نضجنا، ويجعل كل انتصاراتنا تبدو ناقصة، وشاحبة، وباردة كشتاء الخسارات الأول."

تمهيد للفصل السادس والأخير:

"طوينا صفحات الكفاح وبلوغ الحلم، ووقفنا على أرض النضج التي سقيناها بالدمع والجهد. صار اسمي يزين صفحات الكتب، واشتد عود إخوتي في هذا العالم، لكن قلب الكاتبة في داخلي يعلم أن الحكاية لم تنتهِ بعد، وأن الستار لا يمكن أن يُسدل دون مواجهة الفصول الأكثر عمقاً وشجناً في مسيرتنا.

فبعد كل هذه السنوات من البعاد والفراق، كيف استقرت علاقتنا بتلك الوجوه التي غابت يوماً عن شريط طفولتنا؟ وكيف تبدو ملامح الغفران أو العتب في قلوبٍ كبرت وهي تحمل 'غصة كبار'؟ وكيف سنودع تفاصيل هذه الرحلة الطويلة لنعلن تصالحنا مع الماضي بكل ما فيه من جراح؟

هذا ما سنرويه في المحطة الأخيرة والختامية لقصتنا، في: (الفصل السادس والأخير: رماد الماضي.. سلام الروح والوداع الأخير)."

الفصل السادس
رماد الماضي... سلام الروح والوداع الأخير

"يأتي على الإنسان وقتٌ يدرك فيه أن الوقوف على أطلال الوجع لن يعيد الراحلين، وأن استجداء الحنان من ماضٍ مضى وانقضى ليس سوى استنزافٍ لروحٍ كافحت كثيراً لتبقى على قيد الأمل. في هذا الفصل الأخير من حكايتي، لم أعد تلك الطفلة الباكية، ولا المراهقة المغتربة، بل غدوتُ امرأةً صنعتها الخيبات وصقلتها النجاحات، وجاء الوقت لتنثر رماد الماضي في مهب الريح، وتبحث عن سلام روحها قبل أي شيء آخر.

لقد حملتُ قلمي لسنواتٍ كالسيف، أدافع به عن طفولتي المهدورة، وأحارب به وحشة الفراق وغياب أمي وبُعد أبي. صرختُ بالكلمات فوق الورق حتى بُحّ صوت الحبر، وملأتُ الكتب بحكايتي حتى صار الغرباء يبكون لبكائي ويشعرون بغصتي. ولكنني حين نظرتُ إلى نفسي بعد كل تلك الإصدارات والنجاحات، وجدتُ أن الحزن الذي سكنني طويلاً قد تعب هو الآخر منا، وأن الروح التي جُبرت في بيت جدي وتحت سقف حنان 'جدتي' ودعاء 'جدي' تستحق أن ترتاح من ثقل العتب، وأن تنعم بالسكينة."

يأتي على الإنسان وقتٌ
يدرك فيه أن الوقوف على أطلال
الوجع لن يعيد الراحلين، وأن استجداء
الحنان من ماضٍ مضى وانقضى ليس
سوى استنزافٍ لروحٍ كافحت كثيراً
لتبقى على قيد الأمل. في هذا الفصل
الأخير من حكايتي، لم أعد تلك الطفلة
الباكية، ولا المراهقة المغتربة، بل
غدوتُ امرأةً صنعتها الخيبات وصقلتها
النجاحات، وجاء الوقت لتنثر رماد
الماضي في مهب الريح، وتبحث عن
سلام روحها قبل أي شيء آخر.
لقد تفرقت سبل الحياة بوالدينا،
ومضى كلٌ منهما يشق طريقه ويزرع
لنفسه أرضاً جديدة، تاركين وراءهما
عائلةً أولى تلاشت ملامحها في مهب
الريح.

أبي الذي غادر بيتنا القديم أسس حياته وعالمه الخاص بعد مرور تسع سنوات على فراقنا الأول، فتزوج وصار عنده ولد؛ كبر بعيداً عنا ليعيش في كنف والده بالكامل. أما أمي، فقد رمت بها الأقدار بعيداً وسافرت، ومضت سنوات غربتها الطويلة حتى صار لي اليوم أربعة عشر عاماً كاملة وأنا لم أرها في الواقع، ولم ألمح طيفها إلا عبر شاشات التواصل الاجتماعي الباردة، التي لا تنقل دفء الأيدي ولا تمسح الدموع؛ سافرت ودارت بها الأيام وصار عندها ولدان، لتبدأ أمومةً أخرى في أرضٍ أخرى.

ووسط هذا التشتت كله،

ووسط العائلات الجديدة التي بُنيت بعيداً عن حكايتنا، بقيتُ أنا وأخي وأختي الثابت الوحيد في فوضى هذا العالم. ضللنا في بيت جدي، المكان الذي لم يتبدل، والحضن الذي لم يتغير يوماً؛ عشنا تحت سقفهم، وهناك ربينا وكبرنا معززين مكرمين بفضل الله ثم بفضل تلك القلوب الطاهرة التي لم تملّ من احتضاننا يوماً. كبرنا وأيدينا مشتبكة بأيدي بعضنا البعض، صرنا نحن السند والدفء لبعضنا، وتعلمنا أن العائلة لا تُقاس بمن يرحل، بل بمن يثبت في وقت العاصفة.

اليوم، وأنا أقف على مشارف الوداع الأخير لهذه الحكاية، أنظر إلى رماد الماضي براحةٍ تامّة وسلامٍ داخلي لم أعهده من قبل. لقد غفرتُ للأيام قسوتها، وسامحتُ الظروف التي أبعدت أمي وأبي، ولم أعد أحمل في قلبي عتباً لأحد؛ فمن يملك حنان جدتي وهيبة جدي، ومن يملك إخوةً كإخوتي تخطوا المستحيل وصنعوا من ضعفهم قوة، لا يمكن أن يرى نفسه ضحية. أُغلق اليوم كتاب الوجع، وأحبر السطر الأخير بدموع الفخر والامتنان، تاركةً خلفي طفلة الصف الأول التي بكت يوماً بفراق أمها، لتستيقظ اليوم امرأةً كافحت، وكتبت، وانتصرت، ونالت سلام روحها الأبدي.

الخاتمة:

"ها أنا اليوم، أقف عند الشرفة ذاتها التي طالما راقبتُ منها قطرات المطر في طفولتي، لكنني لم أعد تلك الطفلة ابنة السبع سنوات التي ينهش الخوف أمانها الطفولي، ولا تلك التي تختبئ تحت لحافها لتبكي شوقاً لحضنٍ غاب وراء المسافات. أنظر إلى أصابعي وهي تمسك القلم بثبات، هذا القلم الذي لم يكن مجرد أداة للكتابة، بل كان المشرط الذي فتحتُ به جراح الماضي، والضمادة التي داويتُ بها ندوب الروح لسنوات.

لقد دارت عجلة الزمن دورة كاملة؛ كبرنا تحت سقف بيت جدي الدافئ، ورأينا كيف تولد الطمأنينة من رحم الانكسار ببركة قلبين لم يبخلا علينا بقطرة حنان واحدة. أبي الذي اختار بناء عالمه الخاص وصار لديه ابنٌ آخر، وأمي التي تقاسمني معها شاشات التواصل الاجتماعي الباردة بعد أربعة عشر عاماً من الغياب الجسدي وصار لديها ولدان في أرضٍ أخرى.. كلاهما أصبحا في وعيي الحالي فصلاً من فصول كتابٍ قديم، أقرأه بقلبٍ ناضج ومتسامح، دون غلٍّ أو عتب، بل بامتنانٍ خفيّ....

فلولا تلك العواصف لما اشتد عودنا،
ولما عرفنا كم نحن أقوياء.
ألتفتُ إلى داخلي، فأرى أخي الذي صار رجلاً نعتمد عليه، وأرى أختي طفلة الأربعين يوماً وقد غدت زهرةً متفوقة تملأ الدنيا بهجة، ونحن الثلاثة معاً، مشتبكو الأيدي، لم تفرقنا رياح التخلي بل زادتنا ثباتاً. لم نعد ضحايا حكاية حزينة، بل أبطال قصة صمود كُتبت بالدمع والجهد والتحدي، وتوجت بكتبٍ تحمل اسمي، تروي للغرباء كيف يمكن لرماد الفقد أن يصبح حبراً يضيء دروب الآخرين.
اليوم، أعلن التصالح التام مع كل دمعة سالت على خدي، ومع كل غصة كتمها صدري في الصف الأول الابتدائي. أترك الماضي خلفي كرمادٍ نَثرته الرياح في المدى، وأستقبل الغد بسلامٍ داخليّ عميق وسكينةٍ أبَدية. أُغلق كتاب الوجع بابتسامةٍ حقيقية، وأضع السطر الأخير بحبرٍ من نور، معلنةً للعالم أن الطفلة التي بكت يوماً لأنها بلا سقف، قد بَنَت من كلماتها وطناً لا يأتيه الخوف من بين يديه ولا من خلفه.. ولله الأمر من قبل ومن بعد."

(أَرْبَعُونَ يَوماً..وَسَبْعُ سَنَوات)
تأليف: مايا فراس البطش
تركت والدي لكنني لم أقف على شرفة اليت أبكي.
جعلني هذا الكسر قوية لدرجة أنني أستطعت أن أحقق كل أحلامي بمفردي.
ها أنا قد أصبحت كاتبة أبوح عن ما بداخلي بحبر بحبر قلمي وورقتي البيضاء.